

الموسيقى الشرقية

بقلم منير الجم الطرابلسي

— ١ —

اطلعت بالأمس على مقالين ممتعين في « الرسالة » التراء حول فن للموسيقى: أحدهما للأستاذ قدرى حافظ طوقان ، والآخر للأستاذ عبد العزيز البشري ، فسررتي منهما أن يطريا فن الموسيقى العربية ، وتفتنيا بصقرية من اشتغلوا بهذا الفن الجميل من قداى ومحدثين ؛ أقول وأؤكد القول : بأننى جد مفتبط بمقاليهما كغزاء للفن المنبون . . .

ولقد رغبت أن أشاركهما فيما ابدياه من العواطف السابية نحو موسيقانا ، فكتبت في عجالي هذه نبذة عامة عن تطور الموسيقى الشرقية في المهد الأخير ، وما طرأ عليها من الاصلاح والتجديد ، كموسيقى يثار على الفن ، ويؤدى نحوه الواجب المحتوم

— ٢ —

كانت الموسيقى في جميع العصور مقياساً لروحية الأمم ، ورمزاً لأخلاقها ورقة طباعها ، واذا كان للشعر والادب والنحت والتصوير وغيرها من الفنون منزلة سامية في النفوس ، فلموسيقى رتبة أسمى وأعلى ، واذا كان لهذه الفنون أياد يضاء على تهذيب الطباع الإنسانية ، وصقل عواطفها ، فأحر بالموسيقى أن تتعال السبق في هذا المضمار ، اذ تتعدى ذلك الى شفاء بعض الأمراض ، وطرده الهموم من النفوس ، ومعالجة الحيوان والتلطيف من شرسته ووحشيته ، فاسمها مقرون على اللوام بالروعة والاعتبار . . .

نشأت الموسيقى في دورها الأول مع الانسان الساذج المقلد لمظاهر الطبيعة القاتنة ، فاندفع بميله الغريزي ، وعواطفه الكامنة لاتقان هذا التقليد المستحب اللذيذ ، حتى اقلب على مر العصور الى فن جميل له مكاتته بين الفنون

عنيت الأمم النابرة من مصريين ويونان ورومان ، وصينيين وهنود ويابان وفرنس وعرب بالموسيقى عناية قصوى جعلتها

تتطور في أحضانها بخفة ولباقة ، حتى وصلت الينا بحلة قشبية ؛ وما أن افترق الشرق عن الغرب حتى كانت موسيقى الشرق غير موسيقى الغرب ؛ طارت الاولى في سماء الروح والعواطف ، ثم ما لبثت أن هبطت قليلا ، فلا هي بالهابطة ولا هي بالصاعدة ، متقلقلة بين الصمود والهبوط ؛ وأما الثانية فلا تزال جادة في طريق المجد ، تقطع مراحل وأشواطاً من التقدم ، وغدت لدى الذوق الغربي أسمى وأشهى ما يلذ للسمع ويستطاب

— ٣ —

بعد أن انتقلت للموسيقى الى العرب برعوا فيها ، وجددوا ما بلى منها ، وبقيت في عهدهم زاهية يفتاد ومصر والأندلس وغيرها من البلاد العربية حتى دالت دولة العرب ، قعبت في زاوية الامال حقة من الزمن ، تقرب من ينتشلها من وهنتها ، ويقلبها من هثارها بعد ذاك المرز والمجد ، حتى قبض لها منذ قرن تقريباً من يزود عن حقها للمضموم ويرفع من شأنها ولو قليلا أمثال الأساتذة الرحومين : عبده المحمولى ، والنسيخ يوسف النيلواى ، ومحمد عثمان ، وعبدالحى حلمى ، والشيخ سلامه حجازى الذى نبع في الغناء المسرحى وانفرد به ، وكذلك احمد الليثى ، وأميين بنايه ، وابراهيم سهلون ، وغيرهم من عطاء الفن ، ومشاهير الملحنين والغازفين الذين نهضوا بالموسيقى العربية نهضة مباركة لا بأس بها ، وخاصة في قسم الغناء والانشاد ؛ ثم كان منهم النابضة الرحوم الشيخ سيد درويش الذى يعد من المجددين ، واليه يرجع الفضل في تعديل فن الغناء العربى تمديلا لطيفا ، وهو الذى عنى بنغمة « الحجاز كار كردى » التركية ، واستعملها في كثير من أغانيه وأدواره الخالصة ، فزاد الفن بذلك عذوبة ورقة ، وكان بحق آية في البقرية والنبوغ . . . وأخيراً جاء نابيتنا الشاب الأستاذ محمد عبد الوهاب وأمثاله ، وهو مجدد بكل ما في الجبة من معنى ، وقد أضاف الى الفن ما أضاف من عبقرية فذة تتجدد ، ونبوغ مضطرم يزكو ، ولنا كبير أمل بجهوده الفنية التى ستسمو إن شاء الله بالموسيقى الى أقصى مراتب النجاح .

مازال الأستاذ محمد عبد الوهاب يخدم الفن خدمة يشكر عليها ويشاب ، فجد منه أصولاً ، وأصلح فيه أنواعا ، ثم أضاف اليه أقساماً طريقة من الأنغام الأفريقية ، الى غير ذلك من التجديد

شيئاً ، مما يدل على أن لا يحياء الشرق على سكانه في كل صقع أثره الشديد حتى بموسيقاه العذبة .

— ٥ —

يميب الفرييون موسيقانا بالجمود والتشابه والتكرار ، ويهيمونا بقلعة الأنواع الموسيقية ، وعدم تأليف الاصوات ، وادماجها في البقعة للموسيقية جملة واحدة (Harmonie) ؛ ولئن كان هذا النقص معيماً في موسيقانا ، فان قليلاً من الجهد والعناية يذهب به ، واننى لأرى أن هذا النقص الذى نعينه لم يحصل من التهاون والاهمال ، بل هى طبيعة الشرق الهادى توحى لموسيقاه ألطف الانعام الفردية العذبة .

اننى لا أنكر على الغرب محسناته في موسيقاه ، كلا ، ولا أنكر عليه التجديد الفنى الذى أضافه عليها ، فجعلها في مراتب سامية تفوق جد الابداع ، كلا ، ولا أنكر عليه أيضاً استفادة الموسيقى الشرقية والغربية من هذا الرقى والتجديد ، ولكن ذلك لا يمتنى من الجهر بحمال الموسيقى الشرقية اللطيفة اذا ما بذلنا في سبيلها جهداً ومثابة واخلاقاً ، ولا سيما وهى العذبة بانعامها ، الزاخرة بالحنانها ، الطلاقة باسمى العواطف والشمور . . . !

— ٦ —

إننا اذا دققنا في الأنواع الموسيقية لدينا وجدناها ضئيلة جداً بالنسبة الى غزاتها في الموسيقى الغربية ، يؤيد ما يمينا به الفرييون وهى على التقريب كاليلى : الموشحة ، الليالى ، الدور ، القصيدة ، الغناء المسرحى ، الطقطوقة ، المواليا .

فالموشحة : — قطعة غنائية من أرق أنواع الغناء ، اذا ما كانت متينة اللغة والمعنى ، وليس كما يمسحها بعض المغنين بلغة ركيكة ، وألفاظ ممحجة ، وتطويل جاف ممل . . .

الليالى : — « يا ليل يا عين » فهذه لا حدود لها ، تامة لشعور المغنى أو العازف ، وهو لإجسامه في الأنعام ، وقدرته على الانتقال بينها بلباقة وأصول ، حتى ينتهى الى ما بدأ منه ، واذا كانت لموسيقانا ضربية تنفرد بها ، فتكون من هذه الناحية ، إذ يعجز غيرها عن ترديد « الليالى » الالهامية ، وعزف « التفاسيم » الروحية ارتجالاً ، ما لم تكن مسجلة ومخطوطة ، أو محفوظة من سابق عهد .

الموافق للذوق الشرق والغربى ، وغدت اسطوانات أغانيه تسمع حتى في بلاد أوربا بكل إعجاب ، يشاركه في هذا التجديد نخبة صالحة من غواة الفن ، وجمميات ونواد فنية أسست في مصر وسوريا وغيرها ، يجاهدون جيداً في تعزيز الموسيقى الشرقية لتستعيد مكانتها الأولى ، ويكون لها الصدر في الموسيقى العالمية

— ٤ —

هذا في مصر وسوريا وبعض البلاد العربية الأخرى ، وأما في البلاد التركية ، فقد وجدت للموسيقى الشرقية منتجاً خصباً ، فتطورت في سنين قلائل ، حتى لتضاهى كل موسيقى عالمية ، والحن يقال : إن للأتراك فضلاً كبيراً على هذا الفن ، فقد اخترعوا أنغاماً لم تكن تعرف من قبل ، وحسنوها وهذبوا كثيراً من الألحان ، وجعلوا في موسيقاهم أنواعاً متنوعة من القطع الفنية الخالدة ، ونبغ لسيهم عطاء أفذاذ ، أمثال الأساتذة الرحومين : حافظ ، ومونلا عثمان ، وقره قاض القديم ، ووسيلاكى المغنى المشهور ، وعثمان بك ، وعاصم بك ، والطنبورى جميل بك ، و « الكنجاقى » طاتيوس ، وواسلاكى ، وغيرهم ممن أكتسبوا الفن كنوزاً ثمينة لا تقدر ، وقد جاء من بعدهم مجددون معاصرون فأدخلوا تحسينات جمة عليه ، ولتحجوا بعض أقسامه وأجزائه بشيء من الأنعام الافرنجية اللطيفة ، كما أنهم أضافوا فن تأليف الاصوات (Harmonie) على فرع من موسيقاهم ، ولا سيما دار الفنون والموسيقى في الأستانة ، التى تعد في طبيعة المجاهدين في سنبل ترقية الموسيقى الشرقية وتعزيزها . وأما في بلاد فارس والهند والصين وغيرها ، فالرسميقى مازالت مهملة أو كالمهملية ، الا في بلاد اليابان وشرق الصين فأخذت في التقدم السريع ، غير أن الموسيقى الغربية طغت عليها ، وتكاد تكون معها في صراع عنيف ، حيث لكل منهما أحزاب ومشايرون ، والغريب في الموسيقى الشرقية هناك أنها تكاد تضارع الأنعام العربية والتركية في اللهجة والأصول ، فقد ذكر صديق لى أنه كان منذ بضع سنوات في بلدة شنتاى من أعمال الصين الشرقية ، وبينما كان ماراً في حى صينى سمع انعاماً عربية من مقام « الحجاز » فظن لأول وهلة أن العازف علم الآلة ربما كان عربياً ، فرح لهذه المصادفة ، ورغب أن يجتمع به ، ولشد ما كانت دهشته حينما وجدته صينياً عربياً في الصينية ، لا يدري من أصل العرب

الآنفة الذكر يتركب مجموعها اليوم من أنغام كثيرة اختصر على أهمها :

(١) نغمت السيكاه (٢) نغمت المشبران (٣) نغمت العجم
عشبران : - أوج - عراق (٤) نغمت الراس : راس ،
نهاوند ، حجاز كار ، حجاز كار كردى (٥) نغمت الديكاه :
البيات ، حجاز ، صبا ، عشاق ، ييات شورى (٦) سيكاه
(٧) جهار كاه (٨) حسيني ، الى غير ذلك من الأنغام الكثيرة
المستعملة في الموسيقى العربية .

وأما الأنواع الموسيقية لدى الأتراك قصرية الشبه من العربية
غير أن الأنغام لديهم أكثر وأغزر ، زادت في مادة الموسيقى
الشرقية زيادة تذكر ، وخاصة عنايتهم الفارقة بتأليف القطع
الفنية التي تمزج على الآلات ، فهي بحق قطع خالدة جديرة
بالأكبار والأعظام ؛ ولقد استفادت للموسيقى العربية من هذه
القطع الفنية الطريفة والأنغام الاضافية العذبة ، ما جعلها مدينة
الى الموسيقى التركبية مادة ومعنى ، والأنواع المعروفة لدينا من
هذه الممزوقات الفنية هي : البشرف ، والسماي ، والدولاب
قالبشرف : قطعة فنية غزيرة بالأنغام المنسجمة ، مركبة من
جزئين أو ثلاثة أجزاء أو أربعة ، والجزء الواحد يسمى (خانه) ،
تمزج على الآلات الشرقية بواسطة (النوتة) الرموز الاصطلاحية
ضمن قوانين وأوزان محكمة كأوزان الشعر لا يمكن للمازف أن
يشد أو يخرج عنها ، ويكون عزفها عادة أبداً من (السماي) ،
وهي على أنواع من الوزن والقياس والمزج ، لا مجال لذكرها الآن .
وأما « السماي » فهو كالبشرف في أنغامه وتركيبه ، غير أنه
أصغر منه في مجموعه وأسرع في المزج ، وله أوزان ومقاييس
تختلف عنه ، وأما « الدولاب » فهو قطعة فنية صغيرة بأوزان
معلومة ، تمزج عادة قبل الشروع في الغناء تمهيداً للنغم النوى
التنني به ؛ وتوجد غير ذلك ضروب مختلفة ، مقتبسة أصولها من
الضرب : في الرقص والتمثيل والوصف ... الخ كالفالس -
مثلاً - ، والبولكا ، والمارش من القطع الفنية المصورة لتواضع
النفس ، ومظاهر الطبيعة الفاتنة ، ووحى جمالها السانى تصويراً
دقيقاً موافقاً بمد تعديلها للذوق الشرقى ؛ ومن جملة ما اقتبس من
الموسيقى الغربية : الرموز أو الملامات الموسيقية (نوتة) التي

الدور : - قطعة غنائية مركبة من جزئين : الأول يسمى
« مذهب » ، والثاني (دور) وفي الأخير تتمدد الأنغام اللذيذة
الثيرة للطرب والسرور ، وما زالت الأدوار لها مكانتها في
الموسيقى العربية ، وهي آخذة في التقدم والرقى ، من مائة في اللفظ ،
وطرافة في النغم ، مما يجعلها في الصف الأول .

القصيدة : - قطعة شعرية تنشد بألحان معينة ، وتكون
عذبة مطربة اذا كانت محتوية على معان سامية وأنغام مؤتلفة ، وقد
أصبحت في الآونة الأخيرة من الأنواع الراقية نظماً ونقياً ، يعالجها
الشعراء والموسيقيون بكل همّة ونشاط .

الفناء للسرحة : - قطعة غنائية تمثيلية ، لها أصول خاصة
في الفناء ، بحيث تتناسب الأنغام مع معاني كل جزء منها ،
وتوافق الفرض المقصود ؛ فالغناء - مثلاً - في بيت شعري
له نغم يتناسبه ، وكذا الاستمطاف له لحن يوافق ، وتريد بذلك
وضوحاً وتأثيراً في النفوس ؛ وقد عنى الشعراء والموسيقيون
بهذا الضرب من الغناء ، فنظموا ولحنوا قطعاً تناسب المقام أمثال
المرحوم أمير الشعراء شوقي بك ، والأستاذ محمد عبد الوهاب ،
وغيرهما من شواة الفن ، وهواته ومجدييه .

القطمطوقة : - قطعة غنائية حارية على مذهب ودوز بسيط ،
فالذهب هو القطمطة الأولى منها اللازمة للدور في نهاية كل جزء
من أجزائه ، ولغتها على الغالب عامية ، وهذا هو موضع العيب
الفاضح فيها .

للواليا : - وهو في نظري أشد جموداً من غيره ، حيث
الركاكة في الألفاظ ، والترادف في المعنى الواحد للمعنى والهيام
البتدل ، ولا يخرج عن كونه أنيناً متواصلاً ، ونواحاً مؤلماً ،
لا أثر للحياة فيه ، وموجياً للحزن والأسف الشديد ؛ ولدينا
اليوم أيضاً نوع اسمه « النولوج » أو « الفناء الوجداني » الذي
اقتبس أخيراً من موسيقى الغرب ، وقد برع فيه الأستاذ
محمد عبد الوهاب وأبدع فيه أيما إبداع .

- ٧ -

إن الأصوات تختلف في سيرها أثناء المزج أو الغناء ،
تتكون أنواعاً متنوعة يسمى كل منها نغماً ، فالأنواع الموسيقية